

ما هي النبوة وما هي الرسالة ؟ والأدلة العلمية على إمكان الوحي

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى : إما إلقاء في الرؤى ، أو بتوسط ملك يتمثل في صورة بشرية ، أو في أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التي لا يدركها غير نبي ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمي المخالف للسنن العادية وحيًا .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيًا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أو د جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويُدعى صاحبها رسولًا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين في جميع أدوار الإنسانية .

وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحي ، وأنهم إنما يُدَلُّون إلى الناس بما أمروا أن يُدَلُّوا به إليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وإن غضب الناس منهم ، وتألبوا على اضطهادهم . وقد أودى وقتل منهم عدد كبير ، وبلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المشيقات ، فلم يزدادوا إلا إقدامًا ومضيًا .

الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحي كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها ، فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمّة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحاني ، وادعت أن كل ما يقال فيه ، ويسند إليه ، من أوامير الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدّة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي ، أن يعدل عن الاستناد على الأدلة المنطقية إلى الأدلة العلمية ، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية سرّى على بحثها الأسلوب العلمي . وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيرًا من الجهد يذل في سبيل جمعها وترتيبها ، وتعيثها للدفاع عن النبوة من طريق مباشر يوفر للأدلة كل قوتها الإقناعية ،

وهيتها الأدبية .

ونحن وقد انتدبنا لخوض غمار هذه المسألة ، نرى أن نتوجه إلى تحقيقها من ثلاث نواح :

- (أولاها) هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات ، نَفْثاً فى الرُّوع من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟
- (ثانيها) هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه ، تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرق منها ؟
- (ثالثها) هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة ، يُسوِّغ اعتبار النبوة والوحى أمراً ممكنًا ؟
- فلنعالج هذه المسائل الثلاث على الأسلوب العلمى فنقول :

١ - هل فى الوجود ما يدل على حدوث معرفة من غير طريق العقل والحواس ؟

الجواب : نعم ، إلهام الحيوانات ، والعبقرية .

فأما إلهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون فى حياة الحيوانات من لَدُن أقدم عهود العلم أن للحيوانات ، وخاصة الحفيرة الساذجة منها ، أعمالاً فى تطلُّب أغذيتها ، وبناء أَكِنَّتِها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر إدراكاتها القاصرة عن الاهتمام إليها لو تركت وشأنها . وإنا عارضون على قرائنا بعضاً منها :

الفراش متى وصل إلى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أُمَّاتُها (أى أمهاتها) قد ماتت ، أى أنها لا تراها . فمن الذى علم إناث الفراش أن صغارها متى خرجت احتاجت إلى التغذى بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها إلى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلق بها فى أى مكان آخر ؟ هل هدها إلى ذلك أمهاتها ؟ لا ، لأنها لم تراها

في حياتها . هل هديت إليها بعقولها ؟ هذا مما لا يتصوره عقل لأن إدراكاتها قاصرة . ولو أخذت بويضاتها وأفقسستها في بقاع ليس فيها فراش ، لخرجت تلك الديدان وعاشت عيشها الذى يعيشه نوعها ، حتى إذا تطورت وصارت فراشا عملت العمل عينه الذى يعمل به جميع إناث الفراش في كل بقاع الأرض ، مسوقة إليه بدوافع قاهرة لا تكافئها . فلم يبق إلا القول بأنها ألهمت هذه الأعمال من القدرة العليا التى أبدعتها .

والحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى أنها لم تر لها ذرية قط . ولكنها قبل أن تبيض تعنى كل العناية بوضع جثث حيوانية ، تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت . فمن الذى أدرك هذه الحشرات أن فى بيضها صغارا ، وأن تلك الصغار ستخرج فى حاجة إلى الغذاء ، وأن ما تحتاج إليه هى تلك الجثث الحيوانية ؟

ومن أعجب المشاهدات العلمية أن الحيوانات المسماة (بومبيل) من أكلة الحشائش ، ولكن صغارها تولد من أكلة الحيوانات إلى أمد محدود . فترى الأمات تعتمد إلى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت وجدت ما تغذى به . فمن الذى أدركها أن صغارها ستخرج من أكلة الحيوانات ؟

والحيوانات المسماة (أوديتير) و (سفكس) تخرج صغارها من بويضاتها محتاجة إلى التغذية بأجساد حيوانات (حية) . فترى أماتها تعتمد إلى اصطياذ حيوانات لا تقتلها ، ولكن تضربها فى مجمع أعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فإذا خرج صغارها وجدت أمامها غذاءها الضرورى لها .

ومن المثيرات للفكر ما ذكره الأستاذ (ميلن إدوار) المدرس فى جامعة (السوربون) بفرنسا فقد قال : إن الحيوانات المسماة (إكسيكلوب) تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض إناثها مباشرة ، تخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل وفى هدوء تام وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فإذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة إليه تكفى صغيرا واحدا مدة سنة . تلك الذخيرة هى طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنشارة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلمَّ جَرًا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة هذه الصناعة الخيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها في حاجة إلى البقاء سنة في حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذى غرس في قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة في وضع بويضاتها ؟

هذه الإلهامات دليل محسوس على أن قيم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غير طريق الخواص التى لا تستطيع أن تكتسبه بها ، وإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو أولى بأن يصح في عالم الإنسان ، حيث اتصالاته بالأفق الأعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها أكبر .

ولكن الماديين لما شعروا بالخطر الذى يتهدد مذهبهم من هذه الناحية تألبوا على القول بأن هذا الإلهام عادة موروثة ، أى أن الجماعات الأولى من الحيوانات اكتشفت وسائل حياتها فأورثتها أئحلافها ، فصارت فيها غريزة . ولكن كيف اهتمت تلك الكائنات الساذجة إلى هذه الوسائل ولم تَبِدْ قبل أن تجدها ؟ وكيف اتفق أن جميع جماعاتها في مختلف القارات الأرضية تهتدى إلى وسائل من نوع واحد وليس بينها اتصال ؟ وكيف يعقل أن تورثها لأحلافها وقد ثبت أن الوراثة للصفات والعدادات غير ممكنة ، كما قرر ذلك أخص تلاميذ دارون الأستاذ (وسمن) وتبعه أكثر الداروينيين ؟

وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف الفطرية لدى الكائنات الحية ، هى إلهامات إلهية لا شك فيها . قال الأستاذ (بوارك) مدرس الفلسفة في كلية (كوندرسية) بفرنسا ورئيس المجمع العلمى في ديجون في كتابه الفلسفة صفحة ١٥٨ :

« إن الغريزة عند دارون وهربرت سبسر أصلها عادة موروثية ، بمعنى أن الحيوان حصل بالتعلم على كل ما يعمل به ، وعلمه إذا كان واحدا عند جميع أفراد النوع الواحد ، فذلك في رأيهم لأن احتياجات وأعضاء هذه الحيوانات متشابهة . إن تفسيراً كهذا يكون ناقصه واضحاً إذا قوبل بالغرائز المحدودة والكثيرة التركيب لدى أكثر الحشرات . فلا التجربة ولا الذكاء الشخصى يستطيع أن يُعلم الحيوان المسمى (اموفيل) الصناعة الجراحية التى تسمح له بشل حركات الديدان الخضراء بدون أن يقتلها لجعل منها غذاءً لصغارها متى خرجت من بويضاتها » .

وقال الأستاذ (ميلن ادوار) المدرس بجامعة السوربون :

« إن التخيل بأن غرائز الخمل مثل أسمى مدركات القوة العقلية للإنسان ، ليست إلا نتيجة عمل الفواعل الطبيعية أو الكيمائية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأحجار ، إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضاً ، والطبيعى لا يستطيع أن يعقلها أبداً » .

يرى القارىء مما مر أن العلم الطبيعى نفسه يعترف بحدوث إرشاد وتعليم من جانب القدرة الإلهية للعالم الحيوانى الذى يعجز عن تدبير نفسه والشعور بما يصلحه من المحاولات الضرورية له ، فإنكار حدوث هذا الإرشاد للنوع الإنسانى ، وجماعته فى أثناء تكوّنها فى حاجة ماسة إليه ، تحكم لا مسوّغ له .

على أن هذا ليس بالاعتراف الوحيد للعلم بحدوث الهداية والإرشاد من غير طريق الحواس أو العقل العادى ، فإن له اعترافاً آخر لا يقل عن هذا خطورة ، وهو فى هذه الدفعة خاص بالنوع الإنسانى ، وذلك من ناحية ما اصطلاح على تسميته بالعبقرية .

فما هى العبقرية ؟

شاهد فى تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية فى أرفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها أتهم عفواً بدون إجابة

نظر فيها ، ولا أقل محاولة منهم لإحداثها بل لم تكن تخطر لهم على بال . وهى تظهر شذوذا وبدون تمهيد . وقد تمر أجيال دون أن يظهر فى أى بقعة من الأرض عبقرى واحد . وأصحاب العبقرية فى مجموع تاريخ النوع الإنسانى يعدون على الأصابع . وقد اعتبرها الفلاسفة الأقدمون حالا علوية لا شأن للعقل فيها . فقد قال أفلاطون : « العبقرية حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية » .

وليس المعاصرون لنا بأقل من الأقدمين إكبارا للعبقرية ، وجنوحا إلى نسبتها إلى الذات الإلهية . فقد قال فولتير وهو الفيلسوف النقاد الكبير :

« من شروط العبقرية أن يكون فيها ابتكار ، فهذه الخاصة للابتكار هى التى تعتبر منحة إلهية » يريد أن لا عمل للعقل فيها كما ستراه هنا . وقال العبقرى المشهور فيكتور هوجو :

« لندع ما هو من عمل المخ للمخ ، ولنشهد بأن عمل العبقرية نفحة فوق القدرة الإنسانية ، تستخدم فى پروزها للعيان الإنسان نفسه » .

هذا رأى الفلاسفة والعابرة أنفسهم ، والعلم الطبيعى يؤيدهم فيما ذهبوا إليه ، ويقرر بأن العبقرية منحة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ، ولا يوجدنا تفكير . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« إن الإلهام العبقرى لا يأتى من طريق التحريض ولا بالإرادة ، ولا بإطالة الروية » . وجاء فيها : « إن كل ابتكار فنى يصحبه عنصر (موهوب) من الطبيعة نفسها . وهذا العنصر لا يستطيع الإنسان أن يوجده بمجهوده الذاتية » .

وقال الفيلسوف الكبير (تين) : « Taine »

« العبقرية هبة لا تستطيع أن توجدنا أية دراسة ولا أية مثابرة ، فإذا عدت هذه الهبة استحالة العاملون إلى مقلدين وعملة » إلى أن قال : « فإن تحط هذا العامل الخفى بالأسماء الجميلة فتسمه وحيا أو تذعه عبقرية كنت محسنا ومصيا فيما تفعل » .

وقال الفيلسوف الألمانى (هيجل) فى كتابه (علم الجمال) :

« أعمال العبقريّة تحدث بذاتها من طريق الإلهام المفاجيء ، فالعمل العبقري لا يتحصل عليه بالتعلم ولا يقبل التوريث ، فهو هبة من العبقريّة وكفى » .

وقال الأستاذ الكبير الدكتور (بيير جانيه) المدرس بجامعة السوربون :
« العبقريّة قبل كل شيء إلهامات ، وأعني بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطني ولا الذات نفسها أن تدعى أنها تملكها ، فهي تحدث على غير علم متّ بها ، ولا تستطيع إرادتنا أن توجدّها » .

هذا ويشهد العلم بأن العبقريّة أمر خارق للعادة . جاء في دائرة المعارف الإنجليزيّة الكبرى (بريتانيكا) في الطبعة الأخيرة لسنة ١٩٢٩ قولها :

« العبقريّة شيء خارق للعادة على وجه الإطلاق ، وأرقى حتى من القوة العلميّة الفائقة » . إلى أن قالت : « وهي موهبة فذة لا تقبل التفسير محصورة في كلمة العبقريّة » .

وقرّر العلم أيضاً أنها مما لا يمكن تعليله بالقوانين الأدبيّة المعروفة ، فقالت دائرة معارف لاروس للقرن العشرين : « إن جميع النظريات تخيب وتفشل إن أريد فهم حقيقة العبقريّة » . وقالت : « العبقريّة لا يمكن أن تعلل بقوانين » .

وأثبت العلم أيضاً أن العبقريّة غير إرادية ، جاء في المعجم العصري للغة والعلم المطبوع بنيويورك قول الأستاذ (هازلت) :

« تختلف الألمعية عن العبقريّة كما تختلف المقدرة الإرادية عن المقدرة غير الإرادية » .

ونص العلم كذلك على أن الإنسان يملك الألمعية ولكنه لا يستطيع أن يملك العبقريّة ، فهي التي تملكه وتسخره فيما تريد إظهاره بوساطته ، جاء في المعجم العلمي المتقدم ذكره بقلم الأستاذ (لوويل) :

« الرجل الألمعي يكون مالكا للألمعية كما يملك الكثير من الأدوات ويستخدمها في تأدية ما يريد صنعه ، ولها حد تقف عنده ، ولكن الرجل العبقري يكون مملوكا للعبقريّة ، وهي تحوله إلى كتاب أو إلى حياة على ما يشاء هواها » .

نقول : إن مذهب العلم في العبقريّة ، وحيثه في تعليلها ، وتصريحه بأنها خارقة للعادة ، وأنها مما لا يعلل بالنظريات ، ولا يمكن التحصل عليها بالدراسة ولا بالتفكير ، وأنها تملك صاحبها وتسخره لأغراضها ، كل هذا يعتبر اعترافا صريحا بأن أرق مظهر للإبداع الأدبي والمادى يعطاه الإنسان من غير طريق العقل ومناقذ الحواس الجثمانية ، ولا يمكن الحصول عليه بالوسائل العلمية والعملية المعروفة .

ويجب أن يضاف إلى هذا ما شاهده العلم نفسه من الخوارق للعادة في المجالات العقلية والنفسية ، فإن ذلك يساعدنا على تذليل العقبات التي تقف في سبيل التذليل على وجود مرتبة النبوة ، وتقرب إلى عقولنا إمكان الوحي .

للأستاذ البيكولوجي الانجليزي (ميرس) (Myers) مدرس علم النفس بجامعة كامبردج كتاب كبير أسماه (الشخصية الإنسانية) (Human Personality) ، ترجم إلى الفرنسية وغيرها ، نقتطف منه بعض ما أورده ، فإن فيه ما يدل على وجود خصائص نفسية عند بعض الناس تكشف عن حقائق خطيرة ، لا يجوز لمن يعالج مسألة النبوة والوحي جهلها .

قال الأستاذ (ميرس) : « كان للمستر بيدلر خاصة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعيّن على البديهة العوامل التي إذا ضرب بعضها في بعض أنتجت عددا مؤلفا من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلا : ما هما العددا اللذان إذا ضرب أحدهما في الآخر أنتج العدد ١٧٨٦١ ؟ أجابك على الفور بأنهما ٣٣٧ و ٥٣ ، وهو يقول إنه لا يدرى على أية حال يأتي بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية » .

وقال الأستاذ ميرس : « كان للمستر (فان دوتيك) وهو في السادسة من عمره خاصة في الحساب العقلي ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن يدرى على أى أسلوب تسير في نفسه هذه الأعمال الحسية » .

وقال : « كان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرا فيما يريد الكلام فيه ، مما هو خارج عن الحساب الذي ألقى إليه » .

ونقل عن العالم البيكولوجي والشاعر الكبير (سوللي بروودوم) الفرنسي

أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحيان أنى كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية ألقيت إلّى منذ سنة وذلك بدون أن أعيرها أقل التفات » .

وقال نقلا عن العلامة الرياضى المشهور (أراغو) : « اعتدت أنى بدل أن أجهد نفسى فى فهم مسألة فى الجملة التى ألقيت إلى فيها ، كنت أسلم موقتا بأنها صحيحة ، فإذا جاء اليوم التالى دهشت من فهمى كل الفهم ما كان قد ظهر لى معضلا فى اليوم السابق » .

وقال نقلا عن الفيلسوف الكبير (كوندياك) : « إنه كان غالبا يجد أن عملا لم يتم بالأمس قد تم اليوم فى عقله بدون جهد منه » .

وقال : « إن الميسو رينه الشاعر ذكر للدكتور (شابانيكس) بأنه ينام غالبا وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة » .

وقال راويا ما قاله الموسيقى (فنسان دندى) المشهور عن نفسه : « بأنه يرى غالبا وهو فى حالة اليقظة التامة خاطرا سريعا لموضوع موسيقى ، فيحاول بجهد عظيم من العقل أن يضبطه ، كما يفعل الإنسان إذا أراد أن يتذكر مناما » .

قال الأستاذ ميرس : « وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) الفرنسى عن نفسه يقول : « أنا لا أعمل شيئا ، ولكن أسمع ما يلقى إلّى فأنقله ، فكأن إنسانا مجهولا ينادىنى فى أذنى » .

ونقل ميرس أيضا عن الوزير الشاعر الكبير (لا مارتين) قوله : « لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى » . يريد أنه لا دخل لعقله الواعى فى الشعر الذى يعمل .

قال : « وكان (سانت ساينس) مثل سقراط يسمع ما تلقىه الروح الملازمة له إليه » .

قال : « وقد ذكر الميسو (دوكوريل) وهو القصصى الفرنسى المشهور إلى الأستاذ (بينيه) بأن أشخاص أقاصيصه بعد أن تظهر فى عقله بعد جهد منه عظيم ، تصير مستقلة عنه فتتكلم ضد إرادته ، وعلى الرغم من التفاته إليها ، وتتوالى

أمامه عند ذاك أدوار قصته بدون جهد يبذله ولا حركة إرادة ، ولا يكون عليه إلا كتابة أقوال تلك الشخصيات وجمع ما يرى . وإذا حدث أن انقطع عن النظر إلى تلك الشخصيات لسبب كعمل آخر أو نوم ، استيقظ فوجد روايته تامة في عقله . قال : وكان إذا تشاغل عن النظر إلى الرواية التي تمثل أمامه سمع بأذنيه أحاديث أشخاصها » .

ونقل الأستاذ (ميرس) ما كتبه القصصى الانجليزى المشهور (وردستورث) في كتابه (الفاتحة أو تطور عقل شاعر) قال :

« أشعر بضباب باطنى يتحول إلى إعصار ، فأشهد أن قوة بالغة الحد تخترع القطعة وتميل بها هكنا وهكنا إلى كل جهة . هذه القوة الهائلة تنبع من صميم روحي على هيئة البخار الكثيف الذى يغطى السائح المنفرد فجأة . فأشعر إذذاك بأنى هلكت ، فأقف ولا أستطيع أن آتى بأقل جهد يخلصنى مما أنا فيه » .

هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (هـ . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، لا يشعر به الإنسان العادى ، ولكن يشعر به بعض ذوى الاستعداد لذلك الشعور ، وقد رأيت أنهم من كبار العلماء ، وأجلاء الفنانين ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أتقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكننا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين :

(أولهما) وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس كما تدل عليه حياة الحيوان بجمتها وتفصيلها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التى لم يَهْد إليها عقل ، ولم يُحْم حولها فكر ، على حال خارقة للعادة .

(ثانيهما) وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الإنسان بعلم ، وتسعفه بهداية ، من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس ، تقريبا للوحي من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه إلى حد أن كذبوا بالنبوات وهى أعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الإنسانى ، وقد ابتنت عليها أكبر الأحداث التى غيرت مجرى الشئون العالمية فى جميع الأدوار الانقلابية . وليس مما

يعقل أو يناسب كرامة النوع البشرى أن تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الأثر في حياته ، قد قامت على أكاذيب متعمدة ، أو أوهام فكرية .

ومن البعث المحض أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاما تبعثه القدرة الإلهية في أحقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشرى ، وهو فى أشد الحاجة إليه فى أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفى أثناء تطوراته فى أدوار تلك الحياة المتعاقبة .

وإننى أظن بأنى بما أثبتته هنا قد قربت للعقول حدوث الوحي لمن صرحوا للناس بأنهم أنبياء أو مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا إليه وحذروا منه .

وليس هذا كل ما نستطيع أن نقدمه للعقلية العصرية من المقررات العلمية المقربة للوحي من العقول ، فإن لدينا مقررات علمية أخرى نرجو أن ندلى بها فى العدد المقبل إن شاء الله (*) .

الشكوك في إمكان الوحي وعلاجها بالفتوحات العلمية الحديثة

الشك من الصفات العقلية التي نشأت في الإنسان مع العقل نفسه ، وهو ككل صفاته الأدبية نشأ ساذجاً ، ثم تطور بتطور الإنسان في النظر والتفكير . ولما ولدت الفلسفة أصبح أساساً للبحث فيها ، ولكنه لم يكتسب كل قوته إلا على عهد الفلسفة اليونانية ، حيث تكثرت المعقولات ، وتداخلت مناهج البحث فيها ، فكان ذلك داعياً لعلم من أعلامها وهو أرسطو أن يضع أداة للتدليل وهو المنطق .

ولكن صفة الشك لم تبلغ أوج سلطانها إلا على يد (رُنيه ديكارت) الفيلسوف الفرنسي ، فقد جعله أساس مذهبه ، واعتُبر بذلك مجدداً في أسلوب البحث عن الحقيقة في القرن السابع عشر .

في أثناء هذه التطورات العقلية تولدت في النفس الإنسانية نزعة جديدة أساسها زيادة التثبّت ، بوضع المعقولات على قرار مكين من الأدلة المحسوسة ، وما دفع بالنفس إلى هذا الموقف الحشن إلا ما ظهر للباحثين في العلوم من أن كثيراً من المسلمات المنطقية تحكّمات فرضها على العقول الجاهل بالكون ونواميسه ، وعمدوا إلى وضع منطق دَعَوْه بالعلمي ، جعلوا أساسه أن كل معقول لا يؤيده شاهد من الوجود المحسوس لا يجوز وضعه في المُدْرَكَات اليقينية . فإن كان مما يقتضيه العمل العلمي فلا بأس من تسميته افتراضاً علمياً ليُمَثَّل بجانب افتراضات أخرى ، حتى إذا حُظِيَ بشهادة محسوسة رُفِع إلى درجة المسلمات العلمية . وَضَعَ هذه القاعدة (فرنسوا بيكون) الفيلسوف الانجليزي المتوفى سنة (١٧٢٦) وهو صاحب الدستور العلمي الذي يعتبر سداً منيعاً في وجه الأهواء والأوهام التي قد تتسرب إلى العلوم اليقينية فتفسد كيائها وتلحقها بالأساطير .

ولقد غلا حَفَظَةُ هذا الدستور كما غلا جميع حفظة النظم ، فجعلنا من الدرجة التي وصل إليها العلم في القرن التاسع عشر نهايةً لا محل ورائها الجديد ، وحملهم الغلو في تقديس ما وصلوا إليه إلى اعتبار ظنّيات أعلامهم أصولاً يقينية . فلما ظهر

مذهب لامارك في تسلسل الأنواع الحية ، وتألق نجمه في أوائل القرن التاسع عشر ، اعتبره علماء ذلك العهد الكلمة النهائية للعلم لكشف سر أكبر مسألة بيولوجية ، وصاروا يَستجِهلون كل من يجرؤ على التشكيك فيه . فلما ظهر مذهب دارون بعده بنحو ستين سنة ، افتتن به العلماء ودخلوا فيه وتركوا مذهب لامارك من أجله ، وَغَلُّوا فيه غُلُّوا عظيما حتى عدّوا كل من لا يقول به غبيا . ولكن لم تمض عليه ثلاثون سنة حتى تبين لكثير من كبار العلماء وَهْنُ أصوله الأولى ، ففسلّوا منه وعاد كثير منهم إلى مذهب لامارك ، ومنذ عشرين سنة تركوا المذهبين وتمسكوا بمذهب (دوفريس) العالم الهولاندى ، وهو يشايح إيمان الإلهيين ، فإنه أثبت بالتجربة أن الأنواع تنشأ طَفَرَةً متولدة من أنواع قديمة ، حاصلة على جميع مقوماتها بدون تطور تدريجى فى آما د طويلة ، ولا بسبب تأثير البيئة فيها . وفى الوقت نفسه أدركوا أن العلم الذى وصفوا أصوله باليقينيات قرنين متوالين لا تقوم كثير من أصوله إلّا على افتراضات حتى فى العلوم الرياضية . ارجع إلى ما كتبناه فى مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، وما أَلَمنا به فى مقالة (منطق الدين) فى العدد السابق .

هذه التطورات المتتابة فى المقررات العلمية أثرت أعمق تأثير فى عقلية المشتغلين بالعلوم الكونية ، وأورثتهم أدبا عاليا حيال الوجود المحسوس ، وما عسى أن يكون فى ثنياه من القوى المجهولة . فبعد أن كانوا يتعصبون لأصوله المقررة عندهم تعصبا يَأْبَاه العلم نفسه حتى عارضوا أصحاب المكتشفات الحديثة معارضة عنيفة انتصارا لتلك المقررات ، أصبحوا يرحبون بالمجددين فى العلم ، بل يرجون أن يكثر عديدهم ليستطيعوا سد الثُلُم التى أحدثتها الانقلابات المتوالية فيه ، حتى لم يأنفوا عندما جِدَّتْ حادثة خارقة للعادة فى أمريكا ^(١) أن يحققوها ، وأن يعلنوا صحتها وصحة أمثالها ، وكانوا لا يطبقون أن يسمعوها بوجود شىء فى الكون غير المادة وقوتها ، ويرمون من يقول غير هذا بالبَلَه أو بالوقوع تحت تأثير العقائد الموروثة . إن موقف العلم والذين يعبّون من منهله كان قبل الخمسين السنة الأخيرة

(١) حادثة ظهور أمور روحانية محققة فى منزل بمدينة هيدسفيل .

موقف خصومة لكل معقول لا يمت إلى المادة بسبب . فكانت مسألة الوحي من المسائل التي يدحضها العلم بكل شدة ، ويعتدها من أبعد المحالات العلمية ، ثقةً منه أن ليس وراء المادة عالم أرقى منها ، بل ليست الروح البشرية التي تعتبر آية الخلق ، إلا مظهرها من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من أعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم علوى وراء الحس ، واستمدادها منه قوةً وسلطاناً لا تحصل عليهما في عالم المادة مهما توسعت في علاقتها به . وكان الباعث هؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، إكسابهم منذ نحو تسعين سنة على البحث في النفس الإنسانية من طريق التنويم المغناطيسى والذهول الذى يقع فيه بعض الناس فيصرون به أداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

فالتنويم المغناطيسى الذى كشفه الدكتور مسمر الألمانى (١٧٣٣ - ١٨١٥) ، واعترف بوجوده علمياً بعد جهاد مائة سنة للحصول على هذا الاعتراف ، قد أثبت أن للإنسان عقلاً باطنياً أرقى من عقله العادى كثيراً ، وأنه وهو فى تلك الحالة يرى ويسمع من بعد شاسع ما يحدث وما يقال ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا توجد فى عالم الحس أقل علامة لحدوثه . شاهد هذه الأحوال ملايين من الناس حتى أصبحت أمراً لا يمكن الجراء فيه .

ولكن علماء كثيرين لم يقفوا عند هذا الحد ، فلم يكتفوا بالدرجة الأولى أو الثانية لهذا التنويم بل تجاوزوها إلى حدود بعيدة منه ، فشاهدوا أن العقل الباطن يزداد سموا عما شوهد عليه فى درجات النوم الأولى ، ولا يستمر خاضعاً لإرادة المنوم . وبالتوغل فى درجات التنويم توصل المنجربون إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ، وتمثل إلى جانبه غير مَرئية ، بينما يكون الجسد فى حالة موت حقيقى لولا علاقة خفية بينه وبين الروح . وقد توصل هؤلاء العلماء إلى تحقيق أمور روحانية - والمنوم فى تلك الحالة - أثبت لهم أن الروح مستقلة عن الجسد كل الاستقلال ، وأنها لا تنحلّ بانحلاله ، وتتصل وهى متجردة عن المادة بالأرواح التى سبقتها إلى ذلك العالم .

وقد عُلم من هذا أن الروح ، عندما يعترى صاحبها نوم طبيعي أو صناعي ، تتصل في عالمها الروحاني بأمثالها من الأرواح ، ولما تستيقظ لا تذكر شيئاً من ذلك لعدم تدخل المخ الجثافي في هذا الاتصال .

أما حالة الذهول التي يقع فيها بعض الناس ، فيصحبها حدوث ظواهر روحانية تعتبر من الخوارق التي لم يكن ليحلم بحدوثها العلماء ، استعصت على كل تعليل مستند إلى عوامل مادية ، وقد استحضر لشهودها أكبر مشعوذى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء ، ولكنها حوادث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة اليدوية .

إتني بإلمامى هنا بهذا الفتح العلمى لا أقصد الدعوة له بالذات ، ولكنى أقصد منه أن جمهوراً كبيراً من أكبر علماء الأرض أصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحانى ، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الإنسانية ، وأن ذلك يظهر بوضوح في حالة النوم المغناطيسى وحالة الذهول الذى يقع فيه بعض الناس بسبب مرض أو بسبب استعداد عصبى فيهم . ولو كانت هذه التأكيدات من هؤلاء العلماء كلامية فلسفية ، لما سمحت لنفسى بالاستناد إليها في بحث أخذت على نفسى أن أعتمد فيه على العلوم اليقينية . نعم إن هذا الفتح العلمى لم يعم جميع علماء الأرض ولم يصبح فرعاً من العلم الرسمى ، ولكن الجمل الغفير الذى يبحثه منهم واعترفوا به في مدى تسعين سنة ، وفي كل أمة متمدنة ، يفتّ في عُضُد المادية ، ويُطأَمِن من كبريائها ، ويشكك المشايخين لها . على أن من لم يقل به من العلماء لم يتسنّ له فحصه . وليس فيمن وُقِّ لفحصه واحد أعلن احتقاره له أو استند إلى علم في دَحْضه . قال العلامة الطبيعى الكبير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى كدارون في كتابه : (الآيات والمذهب الروحانى في العصر الراهن) : « أنا على اتصال بتاريخ هذه البحوث وكل ما يكتب فيها ، وقد زججت بنفسى فيها منذ عشرين سنة فلم يتفق مرة واحدة أن رأيت رجلاً يبحثها بحثاً جدياً واقتنع بصحة الظواهر الروحية ، ثم عاد ففقد ثقته بها وأعلن أنها مبنية على الخداع والتدليس » .

ونحن لأجل إحاطة هذه البحوث بالاحترام الواجب لها في نظر القارئ ، ننقل لهم فذلكة من تاريخ اشتغال العلماء بدراسة المساتير النفسية على أسلوب العلم الحديث

فنقول :

تاريخ تأسيس جمعية المباحث النفسية في إنجلترا سنة ١٨٨٢ .

جاء في كتاب الشخصية الإنسانية « The Human Personality » للعلامة الأستاذ (هـ . و . ميرس) « H . W . Myers » مدرس البسيكولوجيا في جامعة كامبردج ما يأتي :

« حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل في البلاد حتى وصل إلينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلّة من الزملاء في كامبردج وأجمعوا رأيا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها ، (يريد المباحث الروحية) ، تستحق التفاتاً وجهداً جدياً أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين . وكنت أرى أنا أن محاولة جديرة بهذا الاسم لم تعمل إلى ذلك الوقت للبت في هل نحن أهل أو غير أهل للإلام بشيء يتعلق بالعالم غير المرنى ؟ وكنت مقتنعا بأنه لو أمكن معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يمكن العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتحقيب في الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التى تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها ، فإنها منزهة عن الهوى ، ومُتَرَوِّى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرنى المحسوس .

« فالمباحث التى يجب علينا عملها لا يمكن أن تقتصر على تحليل ساذج للأسانيد التاريخية ، أو التى صدرت عن هذا الوحي أو ذاك مما حدث في الزمان الماضى ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شيء - ككل بحث علمى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة - على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن تزيد عليها غداً ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية وهى : « إذا كان يوجد عالم روحانى ، وكان هذا العالم الروحانى موجودا في أى عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويُتكشف ، فيجب أن يكون كذلك في أيامنا هذه » .

« فمن هذه الوجهة وبالجري على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التى أنا عضو منها هذه المسألة » .

ثم أخذ الأستاذ ميرس يسرد التجارب التى عملها وعملها غيره مما لا سبيل إلى نشره هنا ، ثم قال :

« ما هى الأدلة التى تحملنى على الاعتقاد بأن كل هذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه إذا توصل إلى التحقق ، بغير طريق التأمل ، من الجهل المطلق الذى هو عليه بماهية الوجود الحقيقية .

« إنى أعترف فى كل حال بأن معارفى فيما هو مرجح أو غير مرجح فى الوجود لم تظهر لى كافية لرفض مشاهدات يظهر لى بحق أنها حقيقية ، وأنها مع ذلك ليست مناقضة لمشاهدات وأصول عامة أكثر منها تأسيساً . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعا فإنه - حتى باعتراف ممثلى العلم الرسمى - ليس إلا نظرة عجلى فى العالم المجهول وغير المتناهى للنواميس الطبيعية » انتهى .

هذا هو تاريخ تكوين جمعية المباحث النفسية بلوندره سنة ١٨٨٢ ، من أقطاب العلم فى إنجلترا ، ولا تزال باقية للآن ، وقد جمعت من التجارب النفسية ما وقع فى نحو أربعة وخمسين مجلدا ، وهو ذخى علمى لم يوجد له منيل قط فى أى عهد من عهود العقلية الإنسانية . فإذا أراد قراؤنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية فى نظر رجال العلم ، فليقرعوا ما كتبه عنها الأستاذ الكبير وليم جيمس فى كتابه إرادة الاعتقاد « La Volonté de Croire » ، وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، قال فى الصفحة ٣١٣ :

« إن جمعية المباحث النفسية التى يمتد عملها فى إنجلترا وأمريكا ، قد سمحت بأن يتلاقى العلمان العلمى والروحانى فى مجال واحد . وإنى أعتبر أن هذه الجمعية مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الإنسانية . فلهذا أستحسن أن أفضى إلى القارئ بنتائج أعمالها بإيجاز فأقول :

« إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات ، خيل إلينا أن الضعف العقلى وسرعة التصديق هما الرباط المعنوى الجامع بين أعضاء هذه الجمعية ، وأن حب العجائب هو الأصل المحرك لها . والواقع أنه يكفى أن تلقى نظرة واحدة على أعضائها لدخض هذه التهمة . فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ سدجويك « Sidgwick »

المعروف بأنه أشد الناس شكيمة في النقد ، وأعضاهم قيادا في الشك بجميع البلاد الانجليزية . ووكيلاها المستر ارثر بلفور والأستاذ ج . ب . لنجلى ، سكرتير المجمع العلمى . ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفيزيولوجى الفرنسى الخطير . وتشمل قائمة أعضائها رجالا آخرين كفايتهم العلمية أشهر من نار على علم . فإذا طلب إلى أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها مُتَقَاةً بأدق أساليب التمهيص ، فاني أنوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فإن الفصول الفيزيولوجية التى تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ في دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة ، حتى أن صرامة الأساليب الكشفية التى طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء ، كانت بحيث توجد اختلاف الآراء في باطن الجمعية نفسها » انتهى .

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأى العام المجمع العلمى الانجليزى على تأليف لجنة لفحص الظواهر النفسية وتمحيصها ، فندبت ثلاثة وثلاثين علماً من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية . فبدلوا في تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ، ثم حرروا تقريراً إجماعياً وقع في ٥١٤ صفحة ، وطبع في أكثر اللغات الحية . جاء في آخره ما نصه :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفى كل احتمال في إعداد آلات لإحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أجراً على عملهم هذا ، لأن واسطتنا كان أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له من غرض مالى يرمى إليه ، ولا أية مصلحة في غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن نتخلله من التحولات ، عُمِلت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهدتنا ، وإبعاد كل احتمال لنزوير أو توهم .

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو أربعة أحماس أعضاء اللجنة تجاربهم وهم في أشد درجات الإنكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها كانت إما نتيجة التدليس أو التوهم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية للعضلات ، ولم يتنازل هؤلاء الأعضاء المنكرون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا تمكن مقاومته في شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لا غبار عليها إلخ » .

هذا ما ورد في ذيل ذلك التقرير الضخم ، ولسنا في حاجة لأن نقول إن هذا أكبر حدث سُجِّل في تاريخ العلم . ومن العبث المحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضع أو أن التدليس يروج بين يدي ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتمرسين على النظر والتحصيل وتمييز الغث من السمين في كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر عالمي عاتم ، فهبَّ ألاف من العلماء والفهماء في جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألفوا لما مئات من الجمعيات ، ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوفا من الكتب ، ولا تزال هذه المؤسسات قائمة إلى اليوم ، والاهتمام بها يزداد على نسبة كثرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث ، وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية في لوندرة وباريس وغيرهما ، أصدرت تقارير إضافية ترجمت إلى اللغات الحية .

هذا ولو أردنا أن ننقل شهادات أعضاء انجاء العلمية ، ورؤساء الجامعات ومدرسيها ، والفلاسفة والصحفيين والمحامين ، وجميع من فحصوها من كبار العقول ، لاقتضى ذلك منا مجلدا ضخما ، ولكننا نكتفى بما تقدم فإن فيه بلاغا للمفكرين .

غرضنا من الإلمام بهذه المسألة :

لسنا نقصد بما نشرناه في هذا الموضوع أن ندعو إليه ، ولكننا نقصد منه أن

نُتِبَ للذين غرَّتهم الفلسفة المادية فوقفوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين يظنون أنه ليس في الوجود شيء فوق ما يعرفون ، أنهم مخدوعون ، فإذا لم نظفر إلا بتشكيكهم ، وتشكيك من يتأثرون بكتاباتهم فيما هم جامدون عليه ، فهذا كمسب لنا عظيم .

على أننا نرجو أن يحملهم هذا الشك على ترك خيالاتهم بالقليل من المعرفة التي حصلوها ، وعلى التأسي بأقصاب العلم المعاصرين في التواضع وفي الامتناع عن نفى ما لم يحيطوا بعلمه . وإن لهم في مثل العلامة الكبير السير وليم كروكس أسوة حسنة ، فإن هذا الرجل الفذ حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمي البريطاني ، وقد قال في خطبة له فيه ، كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التي عاونتني في مباحثي النفسية ، وذلت لي طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادي الراسخ الصحيح بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس ماله العلمي المزعوم .

إلى أن قال : « ولست بأسف من الحدود التي تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إلى اعتبارها منشطا منقذا . إلى أعتقد بأنى لست أنا وليس أحد سواى أهلا لأن نحكم بأن شيئا بعينه ليس بوجود في الكون » (تأمل) .

كذلك لهم أسوة بمثل الأستاذ الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا في جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال في مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور (ماكسويل) النائب العام في بورديو من فرنسا ، قال :

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصرى مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا .

ثم قال : « لماذا لا نصرّح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ، ليس في حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فثقلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو

الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟

إلى أن قال : « فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا في آن واحد ، متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » .

نتيجة ما تقدم :

يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسهم من الموجودات . أمّا كُنْه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التي تدبرها ، فلا يزال أمرهما مجهولا . وقد نجلى لهم أن من الحماسة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا أيضا أن طائفة من أمثال هؤلاء العلماء ، قد وُفقوا منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، إلى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على أسلوبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور في خلد أحد أن أقطاب العلم المادى يعددون فيشتون وجودها وقد سبق لهم نفيا ، والتشنيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد إلى اكتشافات هؤلاء العلماء في عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجوده بالحس من الغرائز التي طبع عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها في بحثنا هذا ، إدلالا على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتنان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التي توصلها إلى كمالها المرجو لها ، خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشكوك الخيرة للعقول (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ .

حظ الأمم من النبوة قديماً وحديثاً

يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فإن من اشتهر منهم في التاريخ العام ، وعُرفت سيرهم ، وضُبطت تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تُعرف أسماؤهم ، ولم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية في جميع أدوار وجودها صدرت في حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقاباً مختلفة من كهنة وبطارقة وموابدة ومعلمين ، بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية إنح ، ولكن بسبب الظلمات الخيِّمة على تواريخ تلك الأمم لم تعرف أسماء أكثرهم ، ولم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقدير قدرها من الناحية الفلسفية ، وتمييز من يصح أن يحشر منهم في زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزجّ بهم في قبيل الدجاجة والمشعوذين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين .

ليس هذا موطن تحقيق تاريخي تمييز الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكننا نلفت نظر القارئ إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى في فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهي أن العالم كله متمدّنه ومتوحّشه ملتفّ حول النبوة في جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة في أى عهد من عهود التاريخ ؛ فأينما أجلت بصرك شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً إلى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أم وشعوب وقبائل معوّلة في توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة . فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى توارثتها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لا بد من توفيتها على حال من الأحوال ؟

يقول الماديون : نعم ، ويقول الاعتقاديون : لا . فأى الفريقين أهدى سبيلاً ، وأقوم قِيلاً ؟ الماديون بحكم أصولهم مضطرون لإنكار النبوة واعتبارها شعوذة وتدليسا وخداعاً ، ولحسبان المتلفين حولها سذجا مخدوعين ، وغفلاً مأفونين .

هذا تعليل قليل الكلفة ، سائغ في نظر الذين لا يهتم تحقيق الأمور ، ولكن

الذى أوتى نعمة الثبوت يصعب عليه أن يتحلل من النظر في أمر جليل كأمر النبوة بكلمة يلفظها لا يعرف مبلغها من الصحة .

كل الأنبياء مشعوذون مزورون ، وجميع الخلق سُذَّج مَأْفُونُونَ ! لو صَحَّ هذا لكان أظفَع طعن يمكن توجيهه إلى الجبلة الإنسانية ، وإلى الطبيعة التى كونتها فى رأيهم على هذه الشاكلة . فإن كائنا تستوعب حياته نفسية من هذا الطراز ، ويتسلط عليه وهم بهذا القدر من الخطر ، ويستمر مئات الألوف من السنين فى هذا الضلال العقلى ، يعتبر وجوده شؤماً على الأرض التى يعيش عليها ، ويعد أفضل منه الحيوان الأعجم بما لا يقدَّر .

هنا يمكن أن يقول لنا واحد من أنصار هذا الرأى : رُوَيْدَكَ قَلِيلاً ! أليست القبائل والجماعات قد تناحرت ولا تزال تتناحر لنصرة صنم من الأصنام ، أو لتأييد وهم من الأوهام ، فهل الأصنام والأوهام مما يجب أن يتعصب له إلى هذا الحد ؟ وهل تاريخ الحروب الدينية إلا سلسلة من هذه الاندفاعات الجنونية ، وراء الأوهام النفسية ؟ فإن شئت أن تنظم الدرارى مدحا فى تقديس هذه النفسية البشرية ، فافعل ، ولكن لا تنتظر أن يخفف النقد العلمى من شدته لأى اعتبار من الاعتبارات .

فأجيبه بقولى : لقد قُرِّبت لى البعيد ، وكفيتنى مؤنة سرد الأسانيد الدالة على سمو النفسية الإنسانية ، واسترخاصها حياتها الأرضية فى سبيل غرض لا يمت إلى المتع الجسدية بسبب . إنك نظرت إلى السبب المباشر للتناحر ، فوجدته ماثلاً فى نصرة صنم من الأصنام ، أو وهم من الأوهام ، ولكنك لم ترتفع عن هذا الحضيض لتشرف على الدوافع الحقيقية الباعثة على تأييد الأصنام أو الأوهام . إنك لو فعلت لرأيت أن الباعث هم بعيد الشأو ، على القدر ، سام السموم كله ، وهو اختراق الحجب الأرضية ، للوصول إلى عالم الروح المحض ، والخير البحت .

لا يعيب هذا الاندفاع الإنسانى أن يكون باعته المباشر صنم أو وهم ، فقد يكون منشؤها جهلاً أو سذاجة ، وهما عرضان يزولان وتحل محلهما عقائد صحيحة ، وقد تعود فتُحَرَّف تلك العقائد الصحيحة ، وهلم جرا ، ولكن الباعث الذى يهيب بالإنسانية إلى الجهاد فى سبيل الروح دائب على العمل ، لا يمل ولا ينى

في دور من الأدوار .

يجب أن يُجَرَّد هذا الباعث الروحاني من كل ما يلبسه من عقائد باطلة ، وضلالات عارضة ليتمكن رؤيته على حقيقته ، وتقدير طبيعته ، ومعرفة مدى تأثيره في ترقية النوع البشري وتحريره من بهيمته .

أما رأيت في خلال تاريخ النوع البشري أن هذا الباعث العالي حمّله على تقييد إطلاقه ، وتهذيب أخلاقه ، فعد العدل فضيلة ، والظلم رذيلة ، واعتبر البذل محمداً ، والإمساك مذمة ، وعد التواضع مكرمة ، والتكبر مائمة ، وحسب المساواة مفخرة ، والتميز معرة ؟

فإن قلت : كل هذا أوجه - على قول الداروينيين - ما غرس في طبيعة الإنسان من غريزة الاجتماع ، فهي التي دفعته قهراً للتخلق بما يحفظ وجود الجماعة من الأخلاق الفاضلة ، فتخلق بها قهراً ، وبالإدمان عليها ، كما تقتضيه حاجة الاجتماع ، انطبع في ضميره ، فإذا نظر إليها المتأمل السطحي ظنها صفات فطرية علوية ، وما هي في حقيقتها إلا ضرورات اجتماعية اقتضتها الطبيعة الأرضية ولا أثر للروح فيها .

نقول : كل هذا الكلام معلول ، فإن الاجتماع ليس بحاجة من الأخلاق إلا للقدر الذي عليه النحل والنحل والذئب والفيضان ، وهذه الأنواع كلها ولدت مفطورة على ما يحفظ وجودها الشخصي والنوعي بدون كسب ، فكان يكفي الإنسان أن يولد مفطوراً على مثلها ويقف منها حيث وقفت ، أما وهو لم يقف منها عند حد ما يستدعيه الاجتماع ، فتراه يزيد بها كل يوم تهذيباً ، عاملاً على إنشاء جو أدنى حوله يباين به مادية الطبيعة ، حتى إنه ليحاول أن يخرج نوعه من سلطانها ليعيش في ظلال آدابه وأخلاقه ومدنيته ، بمعزل عن خشونتها وصرامتها ، فإن هذا كله لا يستدعيه قيام الاجتماع ، ولا هو بحاجة إليه . أأنت ترى ألوما مؤلفة من الجماعات قائمة في الأرض على أخلاق السباع والذئب والدببة ؟ فأى عامل دفع الإنسان لما وراء حاجة الاجتماع ، فدرس الأصول حتى قتلها خيراً ، وسرى في سرائر المبادئ حتى لم يدع جنواً من أخطائها يمكن أن تنزوى فيه حقيقة حتى مدّ يدها إليها ، وسلط

عليها من تدبره نورا كشافا فأدركها ، ولم يَأَلْ في إضافة ما يجده من أسرار العدل والإنصاف ، وخفايا الآداب والأخلاق ، إلى ما سبق له تسجيله منها ، حتى أصبح لديه كنز منها اتخذها مثلا أعلى لا يزال يحن إليه ، ويود أن يصيبه تطور أدبي جديد فيضطره إلى التعويل عليه .

ما هذا الحنين من الإنسان إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وفيه تقييد للحرية ، وتحديد للحقوق ، وتكاليف على الأقوياء ، وواجبات على الممتازين ، وحقوق للضعفاء ؟

ما هو العامل النفساني السامى الذى يجعل الإنسان يتمنى أن لو أصبح الناس كلهم متساوين فى الحقوق والواجبات ، فى مجتمع لا أثر فيه للاعتبارات والامتيازات ، بل ما هو ذلك العامل السماوى الذى يجيب بعض النفوس فى الإيثار ، فينزلون لإخوانهم عما يملكون ، وليس فى القانون ولا فى حاجات الاجتماع ما يدعو إليه ؟

إن قلت : إن كل هذا دعا إليه التوسع فى توفية حاجات الاجتماع ، قلت لك : فإن كثيرا من الناس فكروا فى الزهد حتى كان أحدهم يكتفى من الغذاء ببضع تمرات أو تينتين ، ومن اللباس بعباية يجمع حافتها بخلال ، وآخرين آثروا اعتزال الجماعة ضنا بأنفسهم على موبقات الاجتماع ، وغيرهم شغلوا أنفسهم بالعبادة حتى قد لا تصادف الواحد منهم إلا راکعا أو ساجدا ، فهل كان هذا كله من توليدات غريزة الاجتماع التى يقول بها الداروينيون وهى لا تمت إلى الاجتماع بأدى سبب ، بل تنافيه فى نظر الكثيرين من العلماء ؟

تأييد الفطرة الإنسانية لتعاليم الأنبياء :

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شئ أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها فى حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعا قديرا حكيما ، وأن لهم روحاً قُدِّر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يتركبه الإنسان فى حياته الأرضية ، ضد

الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه في تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول ، حتى والإنسانية في أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل في الدين إلا واجبات وتكاليف وإثارات وتضحيات ؟ فلو كان الإنسان طينا محضا لما هوى إلى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه .

وقد بلغ نحو ألف وخمسمائة مليون نفس اليوم من المدينة شأوا لم تكن تحلم به الجماعات التي سبقتها في الوجود ، ومع هذا فهي لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهدا نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين ، رغما عما كتبوا في صرف الناس عن هذه النبوات ، أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئین مع أن في تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يُكرّهُ إلى النفوس الحياة الأرضية ، ويُعدّ المتع الجسدية رجساً من الأرجاس ، فإن فيهم ، وليس من أقلهم أتباعا ، من يقول إن جميع المطالب البدنية أقدار لا تليق بكرامة الإنسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء في الله . وفيهم من يقول ، ولا يقل عن سابقه في عدد الأشياء : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطه قميصك .

فما السر في بقاء هذه الأديان إلى اليوم سائدة على الأمم المتعدنة رغما عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؟ السر غلبة عاطفة علوية على الفطرة البشرية الأرضية ، فهي تدين بهذه الأديان على ما فيها لأنها تنسم من خلال تعاليمها عَرفَ الوحي السماوى الذى تولاه في طفولتها ، وقومها في شببتها ، وعزّاها في شيخوختها ، ولا يزال ينفتحها في سويداء فؤادها بما يربُّها ويكملها .

العوامل النفسية الخفية في حياة النبوات :

يشد الكتاب الماديون في ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الإنسانية ، بحجة منافاتها للعلم من ناحية ، وعدم حاجة الاجتماع إليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض ، وما حيلتنا فيمن جمدوا على ما هم عليه ، ولم يبالوا بما جد في العلم من الفتوحات التي أقامت ألوقا من

العلماء وأقعدتهم في أربعة أرجاء المعمور ، ولا تزال تفعل في النفسية الفلسفية الأفاعيل ؟

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع إلى النبوات فينم عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ، فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه . أما وهو ما يتف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه عنها ، فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها . فيجب على كل باحث في أطوار الإنسان أن يدرك سر تمسكه بها رغما عن جميع الشبهات التى أثّرت حولها . وإذا شئت أن نفضى إليك بما انتهى إليه علمنا في هذا الشأن فأليك :

لا جدال في أن العلوم والفنون قد آتت الإنسان بكل ما هو في حاجة إليه من مقومات الحياة ، وهى دائبة على إبتائه منها بما لا يدع له معها حاجة إلى المزيد ، ولكنها قد عجزت إلى اليوم عن إبتائه بأعز مطلوب لديه ، وهو (العزاء) الذى لا بد منه حيال ما ينتابه من صروف الأيام ، وكوارث الحدثن في الأهل والنفس والمال .

ماذا يغنى الإنسان أن يحاط من طُرف الصنائع ، وتُحف الفنون ، وبدائع المخترعات بما يجعل حياته طيبة هنيئة ، وبما يحبه في استبقائها واستدامتها ، ويزيده تشبثا فيها ، وولوعا بها ، وهو لا يلبث أن يصاب له عزيز عليه بمرض فيعجز عن علاجه نطس الأطباء ، ثم يختطفه الموت من جانبه فلا تقوى قوى العالم كله على تخليصه من أنيابه ! فإذا شيعه إلى مثواه في الأرض ، وعاد يكيه ويندبه أياما وشهورا ، وبدأ يعاود حياته العادية في وسط هذا النعيم المدنى العظيم ، بوغت بكارثة أخرى من هذا النوع في عضو آخر من أعضاء أسرته ، أو أصيب هو بمرض خطير يفقده لذة العيش ، ويجعله حيا كميث ، لا يستطيع حراكا ولا همسا ، ويتراءى له الموت كاشرا عن أنيابه بين لحظة وأخرى ، ويدخل إليه الأساة ويخرجون فلا يستطيعون إسعافه بما يعيده إلى حالته الأولى أو ما يقاربها ، وقد يكون في عنفوان شبابه ، وريق صباه !

هيه قد عُمر حتى بلغ من السن عتيا ، فما الذى يعزيه عن شبابه الذى

تصوحت زهرته ، وأخلقت ديباجته ، وعن قواه التي خارت حتى أصبح لا يستطيع النهوض ، وطالعه وجه الموت شاحبا مزعجا في كل لحظة من وجوده المتعب المثقل بالهموم ؟

إن هذا العزاء للإنسان حاجة لا تعدلها حاجة عنده ، وقد حاول أن يجدها في كل ما تسمح له به العلوم والصناعة فعجزت ، وعمد إلى صرف عقله عنها بالصهباء والمزاهر والدفوف فقشلت ، بل زادت إغالا في الهموم !

هذه الحاجة الماسة إلى العزاء وجدها الإنسان في تعاليم النبوات ، فهي التي تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا إلى كلمة طيبة توجه إليه ، وأمل - ولو ضعيفا - يعتمد عليه ، فاضطر أن يبقى على هذه التعاليم ، متربصا بالعلم أن يفتح عليه بما يؤيدها ، وقد ظهرت بوادر هذا الفتح بما اتفق له من بحوث تجريبية في عالم الروح ، فاكسبت بذلك تعاليم النبوة سلطانا جديدا على العقول ، وكلما تقدمت تلك البحوث ازدادت مرتبة النبوة إشراقا ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ لَا غَلْبَنَ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) (*) .

★ ★ ★

(١) سورة المجادلة (من الآية ٢١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثاني سنة ١٣٥٨ هـ .